حوار الحضارات
بين منطق التمركز ومشادات الصراع

عمر كوش

يأتي الحديث عن حوار الحضارات في مرحلة تاريخية دقيقة وحساسة، خصوصاً وأن عالم اليوم يشهد سيطرة عقلية الحرب والصراع، حيث تحشد أمريكا دول العالم معها في حرب غير معلنة قد تطال شعوباً تمثل حضارات مختلفة، فيما يجري تصوير العرب والمسلمين بصور بعيدة كل البعد عن روح حضارتهم وقيمهما، حتى يخال المرء أن منطق السيطرة والهيمنة غالب على منطق الحوار والتفاعل وتبادل الرأي، وبالتالي: هل بقي ثمة فائدة من مواصلة الحديث عن حوار الحضارات؟ وكيف نستطيع استجلاء ملامح المستقبل في الألفية الثالثة حيث تشهد بدايتها تغيراً حاسماً نحو مزيد من التمركز والنمطية ومحاربة الآخر.

إن ما حدث في الحادي عشر من أيلول في أمريكا وما تلاه من دعوات وخطابات، يستوجب إعادة النظر في مختلف المشكلات المعرفية والسياسية التي يدور حولها تلاقي الحضارات وحوارها، أملاً في بقاء فسحة ولو صغيرة للحوار!

فاليوم، ومع كل الأسف، يجري تصدير خطاب معاد لخطاب الحوار، يُترك فيه العنان للصور النمطية الكامنة في لاشعور الساسة كي يتمادوا في تشويه صورة الآخر، ونبذ أي حضور لممثلي حضارات موغلة في التسامح والتلاقي والتفاعل مع الآخر، ويعمد هذا الخطاب إلى تبسيطية تضع الغرب في مواجهة الشرق، والحضارة مقابل البربرية، والخير في مواجهة الشر، مما يفسح المجال لشرعنة عقلية الانتقام والعداء بين أبناء الأديان. وفي سياق

هذا، عادت ثانية صور البربري والبرابرة القادمون للانقضاض على الحضارة والمدنية الأمريكية ومعها كل منجزات الحضارة الغربية. لكن هيهات يا صاحبي، لن نعثر على صورة «كافافي» بين الحشود المنتظرة، فكافافي مطمئن، لأن البرابرة لم يأتوا من خارج المدينة، رغم أن قدومهم كان يشكل نوعاً من الحل.

عود على بدء:

إن تاريخ الحضارات يشهد على ادعاءات كثيرة، ترى فيها الحضارات نفسها وسط العالم أو مركزه. مرد ذلك هو نوع من التمركز الميتافيزيقي الذي يعطي أفضلية للأنا على الآخر، وللروح على الجسد، وللحياة على الموت، وللكلام على الكتابة... إلخ. لكن التمركزيات التي نشأت بشكل ظاهر مع الغرب الحديث أخذت منحى خطيراً، وتمت عمليات تمركز مختلفة ومتناسخة على الذات: تمركز إثني، وتمركز ديني، وتمركز عقلي، وتمركز صوتي، وتمركز ذكوري، وتمركز شمسي[1]، وما يزيد عن ذلك.

غير أن ما حدث كونياً منذ الربع الأخير من الألفية الثانية وصولاً إلى بداية الألفية الثالثة يستوجب التوقف عنده ملياً، فقد نشأت مع انتصار الليبرالية الجديدة اختلالات خطيرة في التوازنات الاقتصادية والاجتماعية، التي تمّت على حساب قسم كبير من البشر. ومع نشوة الانتصار المزعوم حاولت فرض طابعها أو ذهنيتها البراغماتية النصية الجديدة على العالم، وبشكل ينزع أن يكون كليانياً، وها نحن نشهد، في أيامنا هذه، حالة عود على بدء، ربما عودة الإله «ديونيسيوس» مع «ماكدونالدز» و«الكوكا كولا» وأوهام بعض اتجاهات ما بعد الحداثة. ولم تكف أمريكا الهيمنة الاقتصادية والعسكرية والسياسية والإعلامية على العالم، بل تريد اليوم من دول العالم أن تحدد موقفها حسبما قال بوش الابن: «إما معنا أو ضدنا» في حرب تشنها على

(1) أنظر: يمكن التوسع في هذا الصدد بالرجوع إلى أعمال جاك ديريدا بالفرنسية، وبالأخص: «الكتابة والاختلاف»، و«في علم الكتابة»، و«مواقف».

طريقة الغرب الأميركي، تحت شعار «المطلوب حياً أو ميتاً». هكذا يتحول رئيس الدولة الأعظم في العالم إلى «شريف» يقود تجمعاً للكابوي، تاركاً خلفه كل الادعاءات المخاتلة لخطاب الحرية والديمقراطية، لينحو خطابه المعولم إلى خطاب الهوية الواحد، المركز والنسق، وإلغاء الآخر أو «استئصاله» عبر عملية جراحية تقوم بها الأساطيل وحاملات الطائرات والمارينز وما شابه ذلك. وعليه تعود عقلية القبض على الحقيقة حتى وإن كانت سراباً. ويلح التساؤل هنا عن الفرق بينها وبين عقلية الواحد، سواء كان هذا الواحد هو الحزب أو الأمة أو الطبقة أو العولمة. هل يؤسس ذلك الفضاء المفتوح والمجتمع المفتوح الذي تحدث عنه «كارل بوبر» ذات يوم أم أن الفضاء بدأ يضيق والهوة تتسع شيئاً فشيئاً؟

لقد وصل طموح بعض المفكرين والفلاسفة المعاصرين إلى أن تكون الألفية الجديدة نقيضة لسابقاتها، وأن تتشكل ثقافة عالمية تقوم على المشاركة العالمية، وتضع وراءها ثقافات الهوية والمطابقة من حيث كونها ثقافة متعددة، تؤكد على الاختلاف والتنوع في وقت يسمح بامتلاك أوجه كثيرة للتواصل الذي يساعد على حضور الثقافات وفتح حوارها. لكن هذا الطموح يصطدم، اليوم، بتفكير العقليات التي تصدر عن الصدام والصراع بين الحضارات، وتروج لمنطق الفصل والإحالة، منطق التمركز على الذات الذي يعود باللاشعور إلى مناطق واسعة تحكمها ذهنيات الثنائيات الميتافيزيقية القائمة على حضور الأنا أو الذات وجعلها مركزاً، ونبذ الآخر بوصفه موضوعاً خارجاً وملعوناً يجب إلحاقه أو إلغاؤه.

ميتافيزيقا الفصل والإحالة:

وتعود نشأة منطق التمركز إلى لحظات احتلت فيها ثنائية: الذات والموضوع مساحات واسعة من التفكير الإنساني، بعد أن أفضى التفكير الميتافيزيقي إلى استراتيجيات الفصل والإحالة والإرجاع، وسار في دروب البحث عن الأول والأصل والأفضل... إلخ، وصار التفكير ثنائياً في تطوره، تتوالد منه ازدواجيات، وتفيض عنه مذهبيات. واختلفت مكونات وحمولات

كل طرف في الثنائية بتطور الفلسفات والعلوم، إذ أخذا يتقدمان كقطبين مترافقين في العصر الحديث، أو كمفهومين يرتكزان، في سياق البحث عن أرضية للفكر، على كوجيتو يحاول تحقيق اللحمة بينهما، فيما صارت الفلسفة أصيلة، أو توصم بذلك، بقدر بحثها عن تحقيق توظيفات لكل منهما وفق منطق الفصل والإحالة، وتفضيل الطرف الأول في الثنائية على الطرف الثاني، ثم نشأت صور نمطية تكرس هذا المنطق. هكذا أضحت ثنائية الذات والموضوع تقدم صورة سيئة عن الفكر، خصوصاً أن التقسيم الثنائي الميتافيزيقي ساد نمطاً معيناً من التفكير الفلسفي منذ أفلاطون وحتى هيغل، مروراً بكافة المنهجيات والمذهبيات الفلسفية المتداخلة معه والمتخارجة عنه، وقد اصطلح على تسمية أشكال التفكير هذه: التفكير العقلاني، ووسمت الفلسفة المتمخضة عنها بالفلسفة العقلانية، تلك التي اتخذت العقل، بوصفه بعداً للوغوس (Logos) يوناني، مقاماً لها شيدت عليه مجمل مفاهيمها وإرهاصاتها، ثم أخذ فعل التسمية يفعل فعله، فحمل معه حمولات ومركبات تمركزية، فصلت فيها الذات العاقلة والمفكرة عن الآخر الذي غدا موضوعاً مهمشاً أمام تمركزية الذات التي خصّ بها الغرب ذاته وحده، فعالم الذات عالم عقلاني وواقعي، بينما عالم الغير مستبعد وملعون، لذا على الآخر أن يبقى غريباً وخارجياً، يغط في دنس وبخور ومتخيلات. وبالتحايث مع العقل أنتجت الذات المتمركزة على ذاتها ميتافيزيقا الفصل الحضاري، حضارة الغرب وحضارة الشرق، وعلى خلفية تقسيماتها القطبية والتقابلية جرى تقسيم الشعوب والحضارات والثقافات، بدءًا من التقسيم الأرسطي المعروف في ثنائية إغريق وبرابرة، وصولاً إلى التقسيم الهيغلي ثم الهيدغري، حيث رُبط تاريخ الحضارة والفلسفة بأوروبا الجرمانية، انطلاقاً من دعوى هيغل التي تقول إن الإغريق هم أول من تناول الموضوع في علاقته مع الذات، ثم دعوى هيدغر التي اعتبر فيها الإغريق أول من سكن الكينونة، بل وامتلكها، ثم ربط مصير الفلسفة بالاشتراكية القومية التي حملت معها النازية والكليانية. هكذا تمّ إلحاق الفلسفة والحضارة بالإقليم اليوناني الذي اعتبر امتداداً خاصاً بالغرب وحده (ذات ـ كينونة)، وكأن التاريخ شكل من أشكال الباطنية، بعد أن نزعوا

عن مجموع شروطه لصالح منطق التمركز وعقيدة الأصول، وعليه لا يخرج كلي هيغل وهيدغر عن منطق التاريخانية والغائية، وفي تمركزهما تسقط الصيرورة في التاريخ الخاص بالغرب كي تنتزع من التاريخ ذاتها[1].

إشكال الهوية:

هل يمكن أن نستخلص مما تقدم وجود تمايز بين نوعين من الهوية، هوية صورية مجردة وهوية ثرية، ثم نرجع ذلك، كما يفعل بعض الباحثين، إلى الأساس الذي نهضت عليه رؤيتان فلسفيتان أساسيتان أنتجت كل منهما ثقافة أو حضارة تختلف عن الأخرى، بمعنى أن الحضارة الشرقية ترجمت الهوية الصورية إلى العدم، والحضارة الغربية دخل السلب (العقل) عليها، فترجمها إلى مفهوم للوجود. لا أعتقد ذلك، كون ما سبق يضعنا أمام نوع من الفصل الميتافيزيقي والتقابلي الإحالي المرجع بين الوجود والعدم، فضلاً عن كونه يحيل إلى منتج من منتجات التمركزية الأوروبية التي ألصقت بالشرق صفات انتقاصية عديدة، منها: افتقاد الشرق للوجود والصيرورة، وإعطائه هالة روحية ميتافيزيقية، في مقابل امتلاك الغرب للذات والكينونة. إلى جانب أن الشرق يبدو وفق منظور كهذا كياناً واحداً موحداً وكذلك الغرب، مع أن التاريخ ليس فيه لحظة واحدة تدل على وجود شرق كهذا، أو غرب كذاك.

إن ما يفيده التاريخ هو مجموعة من الشروط كي يتحقق شيء ما: فلسفة، علم، أو حيث تنشأ حضارة في إقليم محدد من الأرض، وإذا كان الغرب قد فاز بالفلسفة حين شيّد مفاهيمه في دولة القانون والديمقراطية ومجتمع المواطنين، وأنتج حضارة لا تزال تضيء عتمة تمركزاته، فإن الحديث يمتدّ عن اختلافات في الدرجة بين المفاهيم والصور، فيما مقام التشييد يمكن للمفاهيم أن تعمره كما يمكن ذلك للصور، وإن الحضارات لا تصل إلى الحوار دون أن تخونها مشادات الصراع وتجاذباته على خلفية التمركز وامتداداته، فتاريخ الحضارات لم يعرف قط صراعاً حول المفاهيم

(1) G. Deleuze & F. Guattari: Qu'est ce que la philosophie?, les editions de minuit, Paris, 1991, p. 88-102.

والقيم والأخلاق، إنما حول النفوذ والسيطرة والهيمنة، وهذا يستنهض فهماً يتجاوز تراتبية القوة، ويتطلع نحو القيم المشتركة والفضاء المفتوح الذي يتسع للجميع، كونه يقوم على التواصل والتلاقي بين مختلف الثقافات وفق منطق الاختلاف والتنوع.

التركيب/ صورة الفكر:

إن المفاهيم كليات متناثرة ومتشظية، لكن المفهوم بذاته ذاتي الإحالة، بمعنى أنه يطرح نفسه بنفسه، كما يطرح موضوعه كذلك[1]، وتتجسد مهمة الفلسفة في بناء المفاهيم على مقام تتواضع عليه، تتراص وتنتظم، بوصفها صانعة المفاهيم، وهذا ما يعطي الفلسفة نزعة بنائية وليس تعالياً ميتافيزيقياً. فنحن بحاجة إلى التركيب والبناء كي نخرج من سؤال الهوية المؤرق، حتى وإن عنى التركيب تركيباً بين الأضداد والمتناقضات، ذلك أن كل ثقافة وحضارة حيّة لا بد لها من التركيب. نحتاج إذاً، للمفاهيم، وللمقام من أجل تركيب كائناتنا المتثاقلة (ذواتنا)، ولن نجد نجاعة في المفاهيم من غير صورة معينة للفكر التي أسميها مقاماً، نحن أبناء شعوب الحضارات القديمة، عرباً وفرساً وأتراكاً وهنوداً وصينيين.. إلخ، نفتقر إلى صورة الفكر تلك، التي يقدمها الفكر عن نفسه، عن إقليمه المعني، وعن توجهه داخل الإقليم، وحتى خارجه. نفتقر ليس للمفاهيم، فنحن نملك قدراً كبيراً منها، بل نفتقر لناظم المفاهيم والمشيّد لها، الحقل الذي تنمو فيه وتترعرع، تتأقلم وتنشال، تتأرضن ثم تعيد أقلمتها في تربة حوّلها التحليق المتعالي إلى مجرد أرض جرداء أو بقايا ذكرى قوم فعلوا شيئاً ما في التاريخ ثم غابوا. هي ذي حال أقاليمنا المحدد كل منها كأرض وبشر ووسط وبيئة وجغرافيا.. تحتاج إلى ما يعود إلى الفكر كفكر وليس كتاريخ أو قل إعادة تأريخ، وإلى صيرورة هي صيرورتنا نحن الذين نعيش على الأرض، الآن، في عصرنا الذي نعيشه ويُعاش حولنا، وليس إلى صيرورة تسقط في التاريخ أو تقفز فوقه. لن تسعفنا

(1) دولوز وغتاري، المصدر السابق، ص ص 44 ـ 54.

ازدواجات ميتافيزيقا ما سمي «عصر النهضة» و«التنوير العربي» ولا سلفية «البعث الحضاري» المزعوم.

إذن، لا طائل من البحث عن سبب تحليلي وضروري يربط الحضارة بإقليم معين، فليس الغرب هو أول من تناول قضية الموضوع في علاقته مع الذات، فقد مارست حضارات الشرق المختلف ـ الصينية والهندية والمصرية والفارسية والعربية الإسلامية وسواها ـ الفكر والفلسفة، وفكرت في الموضوع وحتى في الثالث المرفوع؛ فالفلسفة تؤسس مقامها على حقول المحايثة، كما يقول دولوز، شريطة أن يشاد كل منها على مقام محدد داخل علاقة فلسفية مع اللافلسفة في الوسط والفكر. وإن كان هنالك ثمة أسباب فهي احتمالية وتركيبية للحضارة وللفلسفة وللحوار، ولا يجدي البحث عن كوجيتو ثوري لأجل ذلك، بل حراك خلق ومساءلة وتفكيك ونقد، فالثورة حلم أو يوتوبيا، وهي شيء ـ كما بينت تجارب الثورات ـ لا يتحقق إلا بخيانة ذاته. لكننا حين نطرح الثورة، نطرحها بوصفها حركة نحو اللانهاية، تحليق مستمر ومطلق، ودعوة إلى أرض جديدة وإقليم جديد. بهذا تغدو الثورة تعويضاً عن خيبات وانهيارات وانتكاسات، بل وتعويضاً عن فقدان الأمل أو الخيبات التي يعاني منها العقل. فنحن نملك كما سبق وأسلفت قدراً من المفاهيم، لكننا لم نعثر بعد على المقام الذي نعمّر به تلك المفاهيم، أي لا نعرف أين نضعها، فنلهو مرة في التعالي ومرة أخرى في الماضي من التاريخ. نحن نفتقر إلى مقام الحق في الفلسفة، الحق في النقد والحفر والمساءلة والتفكيك. نفتقر للمقاومة، مقاومة الشكل غير الإمكاني أو القطعي للمفاهيم أو ما يسميه أدورنو الجدل السالب. نفتقر إلى مقاومة الحاضر، مقاومة التسلط والقمع، مقاومة الموت والعبودية، وكل ما هو مرفوض كلياً.